على هامش التربية :

نظرات فى كتاب أميل

لجان جاك روسو

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

كان من العسير أن أطرق موضوع التربية فى مقالاتى السابقة التى نشرت فى هذه المجلة دون أن أتعرض لذكر كتاب (أميل) دستور التربية فى أوربا فى وقت من الأوقات ، فشهرة كتاب (أميل) شهرة عالمية حتى لا تكاد تخلو منه مكتبة من المكتبات الراقية . فهو ثروة جامحة عصفت بالعالم الأوربى سنة ١٧٦٢ وكانت نتيجتها أن طورد روسو فى مختلف الممالك الأوربية وهاجمته الأندية العلمية وصادرت كتابه وتبرأ منه البابا وتحالفت عليه المتاعب وأحاط به العنت والاضطهاد .

وروسو لم ينشأ نشأة يحسد عليها ، وإن كان من الضرورى لاستيفاء بحث حول كتاب تربوى أن نبدأ البحث أولا حول بيئة الكاتب وقيمته الاجتماعية وظروفه الخاصة تلك الأشياء التى تؤثر على الكاتب ، وترويه من معينها ، وتغذيه بتعاليمها فيخرج نتاجه ثمرة غرسها وتعاليمه من أصل تربتها ؛ فلست أحب أن أتناول حياته الخاصة بالبحث والتنقيب فقد تناولها من قبل مئات الكتاب فى الغرب والشرق . وإنما يعنينى أن أتناول كتاب أميل ذلك الكتاب الاجتماعى الخطير .

فما لاحظته على مؤلف الكتاب من كتابه أنه خيالى ، وخيالى متطرف ، ولاغرابة فى ذلك فقد وضع دستوره فى قصر صغير تبرع له بسكناه دوق لكسمبور وزوجته ، وهذا القصر خلوى جميل يحيط به نبع ماء من ناحية ، وأشجار البرتقال من الناحية الأخرى حتى لقد شبه بعضهم ذلك المنزل بأنه كالجزيرة الجميلة Isolo Bella فى البحيرات الايطالية .

وفى هذا العش الفاتن ، بين همس الطيور ولحن المياه وعبير أشجار البرتقال وبين هجوع الطبيعة وروعة الفنان الأعظم ، كتب روسو كتابه (أميل) بخاء يحمل شذى الطبيعة ، ليعطر بها ابن الطبيعة تلميذه الوهمى (أميل) .

فروسو يريد فى كتابه أن يجعل الطبيعة أساس التربيـة ، والتحرر المطلق من كل قيد فالطفل يولد فلا يحزم بقماط ولا يلف بأربطة ، بل يترك طبيعيا لا قيود ولاسدود . ثم يعلم وسط الطبيعة السافرة حيث يجد فيها الحرية الواسعة ، وحيث الأرض ملك للجميع ، فلا وطن ولا قومية ولا ملكية ولا شيء أللهم إلا الطبيعة أم العالم ، حيث الدين ؛ دين الطبيعة .

ثم نراه وهو يناقض تلك الآراء فى أقواله وأعمـاله ، فهو سو يسرى متطرف طالما انتضى قلمه يدافع به عن أهل وطنه كما حدث بينه و بين ڤولتير عندما أراد الأخير أن تمثل له رواية فى جنيف ، فأقام روسـو عليه الدنيا وأقعدها زاعما أن التمثيل مفسـد للأخلاق ولا يجب أن يتعرض أبناء وطنه لمفاسده . كذلك نراه حينا قد اضطر إلى اعتناق الكثلكة بدل البروتستانتينية دين آبائه وأهل وطنه ثم ما لبث أن رجع إلى دين قومه وظل عليـه إلى أواخر أيام حياته . كذلك فهو نفسـه الذى قال إن التربية يجب أن تصبغ بصبغة وطنية ، فتوجه الأفكار والاذواق وجهة وطنية ، وأن يرضع الطفل هـذه الوطنية مع لبن أمه حتى يعيش ويموت لوطنه ولا يرى شيئا غير وطنه .

كل هـذه المتناقضات وغيرها تدل على الشذوذ الفكرى لروسـو مع ما له من آراء صائبة قيمة .

والحق أن الوطنية من أهم العوامل التى يجب أن نعتز بها ونفاخر ، لأنها رمز الشهامة وعنوان النبالة والتضحية ، والتفانى فى سبيل اسعاد الوطن و بناء مجده ورفعة شأنه ، ومع ذلك فأقوال روسو فى الوطنية متباينة متناقضة ، فهو يدعو إلى الأخذ بهـا حينا ، و يطالب بالتحرر منها فى حين آخر ، ولست أشك فى أنه كان ينساق إلى تلك الآراء انسياقا تحت تأثير فكرة عارضة تسنح له .

وهو يرى أن يشب الطفل على الفطرة و يعيش برفقة مؤدبه بعيـدا عن المجتمع ، وأن يتعلم بنفسه و يسمى ذلك بالتربية السلبية ، والحوادث فى نظره هى التى تعلمه شؤون الحياة ، ولست أدرى إذن كيف يتعلم من الحوادث مع أن الحوادث لا تتم إلا إذا اتصلت بالمجتمع ! و بما أن المجتمع فى نظره فاسـد فعلى تلميذه أن يعيش بين الغـابات والأحراش كما تعيش الحيوانات ، وذلك كى يأمن عليه من أن تتسمم أفكاره بما فى المجتمع من مفاسد وشرور ، هذا مع أن الانسان اجتماعى بالفطرة ، فكيف إذن توحى الفطرة ، مع ما فيها من طهر ونقاء ، بالاجتماع على ما به من مفاسد وشرور ؟

ويقول إنه على المؤدب أن يؤدب الطفـل إذا أخطأ دون أن يشرح له ماهيـة تلك الأخطاء ، بل أن يفهمه أن ذلك العقاب نتيجة محتمة لذلك العمل .

ويفضل روسو وجود الظرف الذى يؤهل للطفل تعلم الأشياء التى لا بد منها للحياة ، فمثلا يجد (إميل) نفسه أمام لوحة يريد أن يعرف ما بهـا وهو لا يقرأ ، فيضطر إلى التعـلم ليستفيد من العلم المعرفة ، وهنا يعنّ لنـا أن نتساءل ، كيف يمكن أن يلم (إميل) بالمعرفة دون أن يعرف شيئا عن العالم الخارجى ؟ ولكنها على كل حال آراء روسو المتطرفة .

كذلك يريد أن يكون تلميذه نباتيـا يعيش على الخضر والفاكهة ، وأن يعتنى بتربية حواسـه ، وأن تترك له الحرية التـامة فى أعماله وتصرفاته متحملا نتيجة ما بهـا من خطأ وصواب .

ويجدر بنـا أن نتصدى لهذا الرأى ، فالإنسان يولد بالطبع ناقص العقل وفى تصرفاته ولا شك أخطاء كثيرة قد تبلغ أحيانا حد الخطورة ، فهل من الأصوب حقا أن ندع الطفل يتحمل عواقب تلك الأخطاء ؟ إن روسو يريد ذلك ، فاذا حدث وحطم الطفل مثلا لوحا من الزجاج فى نافذة غرفته فلا يوضع لوح آخر ، دون الاهتمام بما يصيب الطفل من نزلات البرد التى ربمـا تقضى على حياته ؛ فان ما يشعر به من ألم سيدعه فى المستقبل حريصا على زجاج النوافذ فلا يحطمها . وهو فى هـذا الرأى يتجرد من العـاطفة تجردا يظلم معه طفله القاصر ، وليس من المعقول طبعا أن تترك الأم طفلها ، مهما اتهمت بالقسوة ، ليتعرض للمرض والموت كى يتعلم درسا لا ينساه .

وليس من الغريب أن يجاهر جان جاك روسو بتلك الآراء وهو الذى لم يرله أما وعاش محروما من الحنان المنزلى ، فقد ماتت أمه بعد ثمانية أيام من ولادته فتقاذفته الأيام بين صروفها وأراه الدهر كثيرا ممـا خلق فى نفسه تلك الأوهام ، وهو شخصيا قد أدخل أولاده الخمسة فى أحد الملاجئ مع ما كان ممتعا به عندئذ من رغد العيش ، فكيف يشعر من كانت هـذه أعماله بالعطف الأبوى والحنان التربوى ؟

إنه يريد أن يعزل الطفل حتى عن أمه ، وألا يكون معه غير مؤدبه الشاب الذى يقضى معه أكثر سنى حياته ، والذى يجب أن يكون بلا أجر كما يقول روسو حتى لا يكون له دافع فى تربيته إلا الميـل الشخصى . ولست أشـك فى استحالة تلك المطالب الخياليـة التى كان متأثرا بها فيلسوف القرن الثامن عشر من المناظر الطبيعية (والتابلوهات) الخلوية الفاتنة كما وضحت فى أول المقال .

فاذا سلمنا جدلا بأننـا وجدنا هؤلاء النسوة اللائى يرضين بمفـارقة فلذات أكبادهن ، فكيف نجد المربين ؟ وإذا فرضنا وجدان هؤلاء أيضا فهل يتم لنا الحصول على جيل صالح مثالى يقربنا من " السبرمان " المزعوم ؟ أم نحصل على جيل ساذج خيالى تملؤه الأوهام ، يعمل بحواسه ولا يفكر بعقله ؟ جيل لابد له أن يختلط بالمجتمع فى يوم ما فيظل معه على طرفى نقيض ، لأنهما لن يتفاهما ، ابن الطبيعة الخيالى ، وابن الحقيقة والتجارب والمجتمع ؟

إن تعاليم روسو لو طبقت جدلا وحصلنا على (إميل) فان يلبث اميل أن يصطدم بتيار المجتمع الجارف بعد أن يصير شابا فيصيبه فى نفسه ومعلوماته وميوله ، فإما أن ينزوى ويعيش غريبا بين الناس وإما أن يخضع للمجتمع من جديد فيحاول أن ينهل من تعاليمه التى يجهلها فى كبره ما كان لا بد له أن ينهله فى صغره ، وفى هذا من الصعوبة ما يعرضه لأشد ألوان التجارب وأقساها على نفسه المفطورة على الحرية اللا محدودة ، وعقله الذى جبل على عدم البحث والتنقيب ، ذلك العقل الذى أراد له روسو أن يعيش فى محيط الجهل حتى يبلغ تلميذه الثانية عشرة بعيدا عن استعمال الكتب ، وكأن فى استطاعة مداركه أن تنمو بعيدة عن المرانة اللازم لها .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أعرض رأى روسو فى تربية المرأة ، فهو يرى أن المرأة لم تخلق للعلم والحكمة ولا للفن والسياسة ، بل خلقت لتكون أما تنجب أولادا تعيش لترضعهم حتى إذا تمت مدة الرضاعة عهدت بهم إلى المؤدب لتستأنف عملية الوضع والرضاع من جديد ، على أن تكتفى بمبادئ المعرفة الأولية البسيطة .

ومع ما فى هذا الرأى من نواحى الحقيقة ، ففيه أيضا الكثير من نواحى الأنانية والاستبداد ، استبداد رجل العصور المظلمة الذى كان يعتقد أن المرأة دابة خلقت لحفظ النوع .

ولا نزاع هناك بأن وظيفة الأمومة هى الوظيفة الحقيقية للمرأة وأن البيت هو مملكتها الصغيرة ، ولكن ذلك لا يمنع مطلقا من أن تكون ربة تلك المملكة على جانب محترم من المعرفة كى تتمكن من الاحتفاظ بمكانتها والقدرة على إدارة شؤون مملكتها ، لا أن تكتفى كما يقول بتعلم مبادئ المعرفة البسيطة ، فالعمرى إن الجهل المطبق لخير من العلم الناقص والمعرفة المبتورة . . .

وروسو يقول إن الفتاة ذات الذكاء والعبقرية وباء لزوجها وأسرتها وأصدقائها وكل معارفها ، لأنها فى علياء نبوغها تحتقر كل واجباتها كامرأة وتتعالى عن دائرتها الطبيعية للتطلع الى مراكز الرجال ، وأنى أؤيد كل من يوجهون النقد للمرأة التى تتطاول على مراكز الرجال ، بل أدعوهم ليوجهوا إليها مر النقد فالإنسان لا يسلم من النقد إذا خرج عن طبيعته التى هيأتها له المقادير ، لأن مكانة المرأة فى مكانة زوجها ، ومسرتها فى إسعاد أسرتها ومدى ما تقدمه لها من رفاهية وهناء .

ومع ذلك فروسو هنا يتجنى كثيرا فى آرائه على المرأة المتعلمة بوجه خاص ، دون التفرقة بين هؤلاء اللاتى تعلمن لمزاحمة الرجل ، اولئك اللاتى تعلمن حبا للمعرفة ، وشغفا باستجلاء حقائق الحياة .

والحقيقة كما يراها بعض نقاد روسو انه ما دفع إلى افترائه على المرأة المتعلمة إلا ليضع ستارا على حقيقة حياته عندئذ وتبريرا لموقفه فى معاشرته لامرأة جاهلة بلهاء كثيرا ما عابه الجميع على الركون إليها رغم نزعته الفلسفية فى الحياة .

ولهذا فهو القائل أيضا بأن أدوات التبوغ تتعدى مرامى النساء ، فليس لهن الثقة التى تكفل لهن النجاح فى المسائل الدقيقة ، متناسيا أن للمرأة استعدادا طبيعيا لإجادة كل ما يعرض لها من شؤون الفكر والفن ، وأن تاريخ الدول حافل بأسماء عظيمات النساء اللواتى قدمن للعالم من الإنتاج والتقدم العلمى ما تعتز به تلك الدول وتدونه فى أنصع صفحات مجدها ورقيها الفنى ولست فى حاجة إلى ذكر الأسماء فهى ليست فى حاجة إلى تبيان ويكفينا مثلا مدام كورى مخترعة الراديوم .

فاذا سلمنا بعد ذلك لروسو بنظريته فى ابقاء المرأة على جهلها ، واعتبارها أداة خلقت للهو الرجل ومسراته ، وإرضاء ميوله ونزواته ، فكيف يستطيع (اميل) ربيب الطبيعة وتلميذ المؤدب وخريج الحياة ، كيف يستطيع متى بلغ مبلغ الرجولة أن تشاركه الحياة جاهلة تترعرع فى أوحال الغباوة والتبلد ، وهو ابن الطبيعة الخيالى ، العائش بين بدائع الفنان الأعظم وملكوت الخيال والكمال ؟

ولا ريب أنه كان من الأصوب لروسو أن يحتفظ لتلميذه بالمستوى الذى دفعه اليه طلب المعرفة عن طريق الطبيعة وحوادث الأيام ، فيفرض لزواجه امرأة توازيه من حيث المعرفة يقيم بينهما التفاهم الكلى ، لا أن يبتليه بامرأة تعطيه من جهلها أكثر مما يعطيها من معرفته .

ويقينى لو تنبه روسو حينئذ الى أن الحياة المنزلية ليست كلها كمحيط منزله الخامد ، وليست كل النساء كشريكته الغبية البلهاء لعرف أنه لا بد لكل من الرجل والمرأة من المعرفة الكاملة ، وليس هنالك ما يحتم نقصان معرفة المرأة عن معرفة الرجل ، لأنها هى التى تتعهد الرجل طفلا ، وترعاه رجلا ، وانها هى التى تغرس فى طفلها بذور المعرفة والدراية رغم كل النظريات والآراء ، وأن الطفل لا يفتح عينيه إلا على وجهها ، فيحاكى أقوالها وأفعالها ، ليكون نسخة ثانية منها .

ان فى كتاب (أميل) نظرات تضيق بها هذه الصفحات المحدودة ، ومع ذلك أتمنى أن أكون قد عرضت فى هذا المقال الموجز للنواحى الهامة فى هذا الكتاب ، الذى أخرج منه بأن روسو له آراء قد تكون خاطئة ، ولكنها قد تكون سابقة لأوانها ، وفى الحالتين لا تصلح بجملتها كى نطبقها على المجتمع ، وإن كان لا بد لنا من الاسترشاد بها إذا ما أخذنا فى إصلاح طرق التربية .

زينب محمد حسين